# كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب

## وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره وعدل تركيب الخلق فأحسن في تصويره وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره وسهل على خواص عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره وامتن عليهم بتسهيل صعبه وعسيره والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره الذي كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريره ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الإسلام من ظلمة الكفر ودياجيره وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره.

أما بعد فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة والرذائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التي تطلع على الأفئدة كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد وأين منه المرض الذي لا يفوت إلا حياة الجسد ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة الفانية فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى قد أفلح من زكاها وإهمالها هو المراد بقوله وقد خاب من دساها ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الربع وغرضنا الآن النظر الكلي في تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالا له ليقرب من الأفهام دركه ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق ثم بيان حقيقة حسن الخلق ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالرياضة ثم بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق ثم بيان الطرق التي بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس ثم بيان العلامات التي بها يعرف مرض القلب ثم بيان الطرق التي بها يعرف الإنسان عيوب نفسه ثم بيان شواهد النقل على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير ثم بيان علامات حسن الخلق ثم بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشو ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة فهي أحد عشر فصلا يجمع مقاصدها هذا الكتاب إن شاء الله تعالى بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمته لديه وإنك لعلى خلق عظيم وقالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن حديث عائشة كان خلقه القرآن تقدم وهو عند مسلم وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين ثم قال صلى الله عليه وسلم هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك حديث تأويل قوله تعالى خذ العفو الآية هو أن تصل من قطعك الحديث أخرجه ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان وقال صلى الله عليه وسلم إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق حديث بعثت لأتمم مكارم الأخلاق أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة وتقدم في آداب الصحبة

وقـال صـلى الله عليه وسـلم أثقل ما يوضع في المـيزان يـوم القيامة تقـوى الله وحسن الخلق حـديث أثقل ما يوضع في المـيزان خلق حسن أخرجه أبو داود والترمـذي وصـححه من حديث أبي الدرداء وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال يا رسول الله ما الدين قال حسن الخلق فأتاه من قبل يمينه فقال يا رسول الله ما الـدين قال حسن الخلق ثم أتاه من قبل شـماله فقـال ما الـدين فقـال حسن الخلق ثم أتـاه من ورائه فقال يا رسول الله ما الدين فالتفت إليه وقال أما تفقه هو أن لا تغضب حـديث جـاء رجل إلى النـبي صـلى الله عليه وسـلم من بين يديه فقـال ما الـدين قـال حسن الخلق الحديث أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قـدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسلا وقيل يا رسول الله ما الشؤم قـال سـوء الخلق حـديث ما الشـؤم قـال سوء الخلق أخرجه أحمد من حديث عائشة الشؤم سوء الخلق ولأبي داود من حـديث رافع بن مكيث سوء الخلق شؤم وكلاهما لا يصح وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسـلم أوصني فقال اتق الله حيثما كنت قال زدني قال أتبع السيئة الحسنة تمحها قال زدني قـال خالق الناس بخلق حسن حديث قال رجل أوصني قال اتق الله حيثما كنت الحـديث أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وقال حسن صحيح وسئل عليه السلام أي الأعمـال أفضل قـال خلق حسن وقال صلى الله عليه وسلم ما حسن الله خلق عبد وخلقه فيطعمه النار حديث ما حسن الله خلق امرئ وخلقه فتطعمه النار تقدم في آداب الصـحبة وقـال الفضـيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وسـلم إن فلانة تصـوم النهـار وتقـوم الليل وهي سـيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال لا خير فيها هي من أهل النار وقـال أبو الـدرداء سـمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقـول أول ما يوضع في المـيزان حسن الخلق والسـخاء ولما خلق الله الإيمان قال اللهم قوني فقواه بحسن الخلق والسـخاء ولما خلق الله الكفر قـال اللهم قوني فقواه بالبخل وسوء الخلق حديث أبي الدرداء أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق الحديث لم أقف له على أصل هكذا ولأبي داود والترمذي من حديث أبي الـدرداء ما من شـيء في المـيزان أثقل من حسن الخلق وقـال غـريب وقـال في بعض طرقه حسن صحيح وقال صلى الله عليه وسلم إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لـدينكم إلا السـخاء وحسن الخلق ألا فزينـوا دينكم بهما حـديث إن الله اسـتخلص هـذا الـدين لنفسه الحديث أخرجه الدارقطني في كتاب المستجاد والخرائطي في مكـارم الأخلاق من حـديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين وقال عليه السلام حسن الخلق خلق الله الأعظم حديث حسن الخلق خلق الله الأعظم أخرجه الطـبراني في الأوسط من حـديث عمـار ابن ياسر بسند ضعيف وقيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيمانا قال أحسـنهم خلقا حـديث قيل يا رسـول الله أي المؤمـنين أفضـلهم إيمانا قـال أحسـنهم خلقا أخرجه أبو داود والترمـذي والنسـائي والحـاكم من حـديث أبي هريـرة وتقـدم في النكـاح بلفظ أكمل المؤمـنين والطبراني من حديث أبي أمامة أفضلكم إيمانا أحسنكم خلقا وقال صـلى الله عليه وسـلم إنكم لن تسـعوا النـاس بـأموالكم فسـعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق حـديث إنكم لن تسـعوا النـاس بـأموالكم فسـعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق أخرجه الـبزار وأبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات وقـال أيضا صلى الله عليه وسلم سـوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل حـديث سـوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل أخرجه ابن حبان في الضـعفاء من حـديث أبي هريرة والبيهقي في الشعب من حـديث ابن عبـاس وأبي هريـرة أيضا وضـعفهما ابن جرير وعن جرير بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك امـرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك حـــــديث إنك امـــــرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك أخرجه الخـرائطي في مكـارم الأخلاق وأبو العبـاس الـدغولي في كتـاب الآداب وفيه ضـعف وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم أحسن النـاس وجها وأحسـنهم خلقا حديث البراء كـان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أحسن النـاس وجها وأحسـنهم خلقا أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند حسن وعن أبي مسعود البدري قـال كـان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقـول في دعائه اللهم حسـنت خلقي فحسن خلقي حديث أبي مسـعود البـدري اللهم كما حسـنت خلقي فحسن خلقي أخرجه الخـرائطي في

مكـارم الأخلاق هكـذا من رواية عبد الله بن أبي الهـذيل عن أبي مسـعود البـدري وإنما هو ابن مسعود أي عبد الله هكـذا رواه ابن حبـان في صـحيحه ورواه أحمد من حـديث عائشة وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يكـثر الدعاء فيقول اللهم إني أسـألك الصـحة والعافية وحسن الخلق حـديث عبد الله بن عمـرو اللهم إني أسـألك الصـحة والعافية وحسن الخلق أخرجه الخـرايطي في مكـارم الأخلاق بإسناد فيه لين وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال كـرم المـؤمن دينه وحسـبه حسن خلقه ومروءته عقله حـديث أبي هريـرة كـرم المـرء دينه ومروءته عقله وحسن خلقه أخرجه ابن حبـان والحـاكم وصـححه على شـرط مسـلم والـبيهقي قلت فيه مسـلم بن خالد الـزنجي وقد تكلم فيه قـال الـبيهقي وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفا على عمر وقال إسناد صحيح وعن أسامة بن شـريك قـال شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله عليه وسلم يقولون ما خـير ما أعطى العبد قـال خلق حسن حديث أسامة بن شريك شهدت الأعاريب يسألون رسـول الله صـلى الله عليه وسلم ما خير ما أعطى العبد قال خلق الحسن أخرجه ابن ماجه وتقـدم في آداب الصـحبة وقـال صـلى الله عليه وسـلم إن أحبكم إلي وأقـربكم مـني مجلسا يـوم القيامة أحاسـنكم أخلاقا حديث إن أحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلسا يـوم القيامة أحاسـنكم أخلاقا أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حـديث أبي هريـرة إن أحبكم إلى الله أحاسـنكم أخلاقا وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر إن أقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا وقد تقدم الحديثان في آداب الصحبة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله أو حلم يكف به السفيه أو خلق يعيش به بين النـاس حـديث ابن عباس ثلاث من لم يكن فيه أو واحـدة منهم فلا يعتد بشـيء من عمله الحـديث أخرجه الخـرايطي في مكـارم الأخلاق بإسـناد ضـعيف ورواه الطـبراني في الكبـير وفي مكـارم الأخلاق من حديث أم سلمة وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم في افتتاح الصـلاة اللهم أهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصـرف عـني سـيئها إلا أنت حديث اللهم اهدني لأحسن الأخلاق الحـديث أخرجه مسـلم من حـديث علي وقـال أنس بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم يوما إذ قـال إن حسن الخلق ليـذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد حديث أنس إن حسن الخلق ليـذيب الخطيئة كما تـذيب الشـمس الجليد أخرجه الخـرايطي في مكـارم الأخلاق بسـند ضـعيف ورواه الطـبراني والطيالسي والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وضعفه وكـذا رواه من حـديث أبي هريرة وضعفه أيضا وقال صلى الله عليه وسلم من سعادة المرء حسن الخلق حـديث من سعادة المرء حسن الخلق أخرجه الخرايطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشـعب من حديث جابر بسـند ضـعيف وقـال صـلى الله عليه وسـلم اليمن حسن الخلق حـديث اليمن حسن الخلق أخرجه الخرايطي في مكـارم الأخلاق من حـديث علي بإسـناد ضـعيف وقـال صلى الله عليه وسـلم لأبي ذر يا أبا ذر لا عقل كالتـدبير ولا حسب كحسن الخلق حـديث يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي ذر وعن أنس قال قالت أم حبيبة لرسول الله صـلى الله عليه وسـلم أرأيت المـرأة يكـون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لأيهما هي تكون قـال لأحسـنهما خلقا كان عندها في الدنيا يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة حديث أنس قالت أم حبيبة يا رسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان الحديث أخرجه البزار والطبراني في الكبـير والخـرايطي في مكـارم الأخلاق بإسـناد ضـعيف وقـال صـلى الله عليه وسـلم إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكـرم مرتبته حـديث إن المسـلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه الحديث أخرجه أحمد من حـديث عبد الله بن عمـرو بالرواية الأولى ومن حـديث أبي هريـرة بالرواية الثانية وفيهما ابن لهيعة وفي رواية درجة الظمآن في الهـواجر وقـال عبد الـرحمن بن سـمرة كنا عند النـبي صـلى الله عليه وسلم فقال إني رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمـتي جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجـاء حسن خلقه فأدخله على الله تعـالى حـديث عبد الـرحمن بن سـمرة إني

رأيت البارحة عجبا الحديث أخرجه الخرايطي في مكارم الأخلاق بسند ضـعيف وقـال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخـرة وشـرف المنازل وإنه لضعيف في العبادة حـديث إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجـات الآخـرة الحـديث أخرجه الطـبراني والخـرايطي في مكـارم الأخلاق وأبو الشـيخ في كتـاب مكـارم الأخلاق وأبو الشـيخ في كتـاب طبقـات الأصـبهانيين من حـديث أنس بإسـناد جيد وروي أن عمر رضي الله عنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويسـتكثرنه عالية أصـواتهن على صـوته فلما اسـتأذن عمر رضي الله عنه تبـادرن الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضـحك فقـال عمر رضي الله عنه مم تضحك بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال عجبت لهـؤلاء اللاتي كن عنـدي لما سـمعن صوتك تبـادرن الحجـاب فقـال عمر أنت كنت أحق أن يهبنك يا رسـول الله ثم أقبل عليهن عمر فقال يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم قلن نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صـلى الله عليه وسـلم أيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سـالكا فجا إلا سـلك فجا غـير فجك حديث إن عمر استأذن على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وعنـده نسـاء من قـريش يكلمنه ويستكثرنه الحديث متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم سوء الخلق ذنب لا يغفر وسوء الظن خطيئة تفـوح حـديث سـوء الخلق ذنب لا يغفر الحـديث أخرجه الطـبراني في الصغير من حديث عائشة ما من شيء إلا له توبة إلا صاحب سـوء الخلق فإنه لا يتـوب من ذنب إلا عاد في شر منه وإسـناده ضـعيف وقـال صـلى الله عليه وسـلم إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم حديث إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم أخرجه الطبراني والخرايطي في مكـارم الأخلاق وأبو الشـيخ في طبقـات الأصـبهانيين من حـديث أنس بإسناد جيد وهو بعض الحديث الذي قبله بحديثين الآثار قال ابن لقمان الحكيم لأبيه يا أبت أي الخصال من الإنسان خير قال الدين قال فإذا كانت اثنتين قال الـدين والمـال قـال فإذا كانت ثلاثا قال الدين والمال والحياء قال فإذا كانت أربعا قـال الـدين والمـال والحيـاء وحسن الخلق قال فإذا كانت خمسا قال الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء قال فإذا كانت سـتا قـال يا بـني إذا اجتمعت فيه الخمس خصـال فهو نقي تقى والله ولي ومن الشيطان بري وقال الحسن من ساء خلقه عذب نفسه وقـال أنس بن مالك إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غـير عابد ويبلغ بسـوء خلقه أسـفل درك في جهنم وهو عابد وقـال يحـيى بن معـاذ في سـعة الأخلاق كنـوز الأرزاق وقـال وهب ابن منبه مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترقع ولا تعـاد طينا وقـال الفضـيل لأن يصـحبني فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبني عابد سـيي الخلق وصـحب ابن المبـارك رجلا سـيي الخلق في سـفر فكـان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقـال بكيته رحمة له فارقته وخلقه معه لم يفارقه وقـــــــــال الجنيد أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمـال الإيمـان وقال الكتـاني التصـوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصـوف وقـال عمر رضي الله عنه خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال وقال يحيى بن معاذ سـوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كـثرة السـيئات وسـئل ابن عباس ما الكرم فقال هو ما بين الله في كتابه العزيز إن أكرمكم عند الله أتقـاكم قيل فما الحسب قال أحسنكم خلقا أفضلكم حسبا وقـال لكل بنيـان أسـاس وأسـاس الإسـلام حسن الخلق وقـــال عطـــاء ما ارتفع من ارتفع إلا بـــالخلق الحسن ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السـالكون آثـاره بحسن الخلق.

## بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

اعلم أن النـاس قد تكلمـوا في حقيقة حسن الخلق وأنه ما هو وما تعرضـوا لحقيقته وإنما تعرضـوا لثمرته ثم لم يسـتوعبوا جميع ثمراته بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كـان حاضـرا في ذهنه ولم يصـرفوا العناية إلى ذكر حـده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته

على التفصيل والاستيعاب وذلك كقول الحسن حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى وقال الواسطي هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى وقال شاه الكرماني هو كف الأذى واحتمال المؤن وقال بعضهم هو أن يكون من الناس قريبا وفيما بينهم غريبا وقال الواسطي مرة هو إرضاء الخلق في السراء والضراء وقال أبو عثمان هو الرضا عن الله تعالى وسئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه وقال مرة أن لا يتهم الحق في الرزق ويثق به ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس وقال علي رضي الله عنه حسن الخلق في ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال وقال الحسين بن منصور هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق وقال أبو سعيد الخراز هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى فهذا وأمثاله كثير وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لا لنفسه ثم ليس هو محيطا بجميع الثمرات أيضاوكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة فنقول الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا يقال فلان حسن الخلق والخلق أي حسن الباطن والظاهر فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ويراد بالخلق الصورة الباطنة وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا وإنما قلنا إنها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم فههنا أربعة أمور أحدها فعل الجميل والقبيح والثاني القدرة عليهما والثالث المعرفة بهما والرابع هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين إما الحسن وإما القبيح وليس الخلق عبارة عن الفعل فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحد وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد بل هو عبارة عن المعنى الرابع وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل فالخلق إذا عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة وهي التي قال الله فيها ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة أعني إشارة العقل والشرع وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع فالعقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هي القدرة ومثالها مثال المنفذ الممضي لإشارة العقل والغضب هو

الـذي تنفد فيه الإشـارة ومثاله مثـال كلب الصـيد فإنه يحتـاج إلى أن يـؤدب حـتى يكـون استرساله وتوقفه بحسب الإشـارة لا بحسب هيجـان شـهوة النفس والشـهوة مثالها مثـال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مروضا مؤدبا وتارة يكون جموحا فمن استوت فيه هذه الخصـال واعتـدلت فهو حسن الخلق مطلقا ومن اعتـدل فيه بعضـها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجـزاء وجهه دون بعض وحسن القـوة الغضـبية واعتـدالها يعـبر عنه بالشـجاعة وحسن قـوة الشـهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طـرف الزيـادة تسـمى تهورا وإن مالت إلى الضـعف والنقصـان تسـمى جبنا وخـورا وإن مـالت قـوة الشـهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها وإن مالت إلى النقصـان تسـمى جمـودا والمحمـود هو الوسط وهو الفضيلة والطرفان رذيلتان مذمومتان والعدل إذا فات فليس له طرفا زيـادة ونقصـان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجـــور وأما الحكمة فيســـمى إفراطها عند الاســـتعمال في الأغــراض الفاســدة خبثا وجربــزة ويســمى تفريطها بلها والوسط هو الــذي يختص باسم الحكمة فـإذن أمهـات الأخلاق وأصـولها أربعة الحكمة والشـجاعة والعفة والعـدل ونعـني بالحكمة حالة للنفس بها يــدرك الصــواب من الخطأ في جميع الأفعــال الاختيارية ونعــني بالعـدل حالة للنفس وقـوة بها تسـوس الغضب والشـهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقبـاض على حسب مقتضـاها ونعـني بالشـجاعة كـون قـوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتـأديب العقل والشرع فمن اعتدال هذه الأصـول الأربعة تصـدر الأخلاق الجميلة كلها إذ من اعتـدال قـوة العقل يحصل حسن التـدبير وجـودة الـذهن وثقابة الـرأي وإصـابة الظن والتفطن لـدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ومن إفراطها تصدر الجربـزة والمكر والخـداع والـدهاء ومن تفريطها يصدر البله والغمارة والحمق والجنون وأعني بالغمارة قلة التجربة في الأمــور مع سلامة التخيل فقد يكون الإنسان غمرا في شـيء دون شـيء والفـرق بين الحمق الجنـون أن الأحمق مقصـوده صـحيح ولكن سـلوكه الطريق فاسد فلا تكـون له روية صـحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض وأما المجنون فإنه يحتار ما لا ينبغي أن يختـار فيكـون أصل اختيـاره وإيثـاره فاسـدا وأما خلق الشـجاعة فيصـدر منه الكـرم والنجـدة والشـهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتــودد وأمثالها وهي أخلاق محمودة وأما إفراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكـبر والعجب وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجـزع والخساسة وصـغر النفس والانقبـاض عن تنـاول الحق الـواجب وأما خلق العفة فيصـدر منه السـخاء والحيـاء والصـبر والمسـامحة والقناعة والـورع واللطافة والمسـاعدة والظـرف وقلة الطمع وأما ميلها إلى الإفــراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبـذير والتقتـير والريـاء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واسـتحقار الفقـراء وغـير ذلك فأمهـات محاسن الأخلاق هـذه الفضـائل الأربعة وهي الحكمة والشـجاعة والعفة والعـدل والبـاقي فروعها ولم يبلغ كمـال الاعتـدال في هـذه الأربع إلا رسـول الله صـلى الله عليه وسلم والناس بعده متفاوتون في القـرب والبعد منه فكل من قـرب منه في هـذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضـدادها اسـتحق أن يخـرج من بين البلاد والعبــاد فإنه قد قــرب من الشــيطان اللعين المبعد فينبغي أن يبعد كما أن الأول قريب من الملك المقرب فينبغي أن يقتـدي به ويتقـرب إليه فـإن رسـول الله صـلى الله عليه وســلم لم يبعث إلا ليتمم مكــارم الأخلاق كما قــال حــديث بعثت لأتمم مكــارم الأخلاق تقدم في آداب الصحبة وقد أشار القـرآن إلى هـذه الأخلاق في أوصـاف المؤمـنين فقـال تعـالى إنما المؤمنـون الـذين آمنـوا بالله ورسـوله ثم لم يرتـابوا وجاهـدوا بـأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون فالإيمـان بالله وبرسـوله من غـير ارتيـاب هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الـذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قــوة الغضب

على شرط العقل وحد الاعتدال فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال أشداء على الكفار رحماء بينهم إشارة إلى أن للشدة موضعا وللرحمة موضعا فليس الكمال في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه.

## بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير واستدل فيه بأمرين أحدهما أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ولا القبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى والثاني أنهم قالوا حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الآدمي فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده فنقول لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسنوا أخلاقكم حديث حسنوا أخلاقكم أخرجه أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ يا معاذ حسن خلقك للناس منقطع ورجاله ثقات وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله كالسماء والكواكب بل أعضاء البدن داخلا وخارجا وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله وإلى ما وجد وجودا ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فأن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربية فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان أحدهما قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوة الشهوة فإنها أقدم وجودا إذ الصبي في مبدإ الفطرة تخلق له الشهوة ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز والسبب الثاني أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا والناس فيه على أربع مراتب الأولى وهو الإنسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقي كما فطر عليه خاليا عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان والثانية أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهواته وإعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصلاح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم والثالثة أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال والرابعة أن يكون مع نشئه على الرأي الفاسد

وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قـدره وهـذا هو أصـعب المـراتب وفي مثله قيل ومن العنـاء رياضة الهـرم ومن التعذيب تهذيب الـذيب والأول من هـؤلاء جاهل فقط والثـاني جاهل وضـال والثـالث جاهل وضال وفاسق والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به وهو قــولهم إن الآدمي ما دام حيا فلا تنقطع عنه الشــهوة والغضب وحب الــدنيا وســائر هــذه الأخلاق فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهـدة قمع هـذه الصـفات بالكلية ومحوها وهيهات فإن الشهوة خلقت لفائـدة وهي ضـرورية في الجبلة فلو انقطعت شـهوة الطعام لهلك الإنسان ولو انقطعت شهوة الوقـاع لانقطع النسل ولو انعـدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسـان عن نفسه ما يهلكه ولهلك ومهما بقي أصل الشـهوة فيبقى لا محالة حب المـال الـذي يوصـله إلى الشـهوة حـتى يحمله ذلك على إمسـاك المـال وليس المطلـوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الـذي هو وسط بين الإفـراط والتفريط والمطلـوب في صـفة الغضب حسن الحمية وذلك بـأن يخلو عن التهـور وعن الجبن جميعا وبالجملة أن يكـون في نفسه قويا ومع قوته منقـادا للعقل ولـذلك قـال الله تعـالى أشـداء على الكفار رحماء بينهم وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشــدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قلع الشـهوة والغضب بالكلية والأنبيـاء عليهم السـلام لم ينفكـوا عن ذلك إذ قال صلى الله عليه وسلم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر حديث إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر أخرجه مسـلم من حـديث أنس وله من حـديث أبي هريـرة إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وكــان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حــتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقا فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق حــديث أنه كـان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حــتى تحمر وجنتــاه ولكن لا يقــول إلا حقا فكــان الغضب لا يخرجه عن الحق أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير في قصة شراج الحرة فقال لأن كـان ابن عمتك فتلـون وجه رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ولهما من حديث أبي سعيد الخدري وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه ولهما من حديث عائشة وما انتقم رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ولمسـلم ما ينـال منه شـيء قط فينتقم من صـاحبه الحـديث وقـال تعـالى والكـاظمين الغيظ والعـافين عن النـاس ولم يقل والفاقـدين الغيظ فـرد الغضب والشـهوة إلى حد الاعتـدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكـون العقل هو الضـابط لهما والغـالب عليهما ممكن وهو المـراد بتغيـير الخلق فإنه ربما تسـتولي الشـهوة على الإنسـان بحيث لا يقـوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش وبالرياضة تعـود إلى حد الاعتـدال فـدل أن ذلك ممكن والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها والذي يدل على أن المطلـوب هو الوسط في الأخلاق دون الطــرفين أن الســخاء خلق محمــود شــرعا وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير وقد أثنى الله تعالى عليه فقـال والـذين إذا أنفقـوا لم يسـرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقال تعـالى ولا تجعل يـدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسـطها كل البسط وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قـال الله تعـالى وكلوا واشـربوا ولا تسـرفوا إنه لا يحب المسـرفين وقـال في الغضب أشـداء على الكفـار رحماء بينهم وقال صلى الله عليه وسلم خير الأمور أوساطها حديث خير الأمـور أوسـاطها أخرجه الــبيهقي في شــعب الإيمــان من رواية مطــرف بن عبد الله معضلا وهــذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم قـال الله تعـالى إلا من أتى الله بقلب سليم والبخل من عوارض الدنيا والتبذير أيضا من عوارض الدنيا وشرط القلب أن يكون سليما منهما أي لا يكون ملتفتا إلى المال ولا يكـون حريصا على إنفاقه ولا على إمساكه فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحـريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكـان كمـال القلب أن يصـفو عن الوصـفين جميعا وإذا لم يكن ذلك في الـدنيا طلبنا ما هو الأشـبه لعـدم الوصـفين وأبعد عن الطـرفين وهو الوسط فـإن الفـاتر لا حـار ولا بـارد بل هو وسط بينهما فكأنه خـال عن الوصـفين فكـذلك السخاء بين التبذير والتقتير والشجاعة بين الجبن التهور والعفة بين الشره والجمود وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور ذميم هذا هو المطلوب وهو ممكن نعم يجب على الشــيخ

المرشد للمريد أن يقبح عنـده الغضب رأسا ويـذم إمسـاك المـال رأسا ولا يـرخص له في شيء منه لأنه لو رخص له في أدنى شيء اتخذ ذلك عذرا في اسـتبقاء بخله وغضـبه وظن أنه القـدر المـرخص فيه فـإذا قصد الأصل وبـالغ فيه ولم يتيسر له إلا كسر سـورته بحيث يعـود إلى الاعتـدال فالصـواب له أن يقصد قلع الأصل حـتى يتيسر له القـدر المقصـود فلا يكشف هـــذا السر للمريد فإنه موضع غـــرور الحمقى إذ يظن بنفسه أن غضـــبه بحق وأن إمساكه بحق.

## بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة وإلى اعتـدال قـوة الغضب والشـهوة وكونها للعقل مطيعة وللشـرع أيضا وهـذا الاعتـدال يحصل على وجهين أحدهما بجود إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الإنســان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب بل خلقتا معتـدلتين منقـادتين للعقل والشـرع فيصـير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكـذا سـائر الأنبيــاء صــلوات الله عليهم أجمعين ولا يبعد أن يكــون في الطبع والفطــرة ما قد ينـــال بالاكتساب فرب صبي خلق صـادق اللهجة سـخيا جريا وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتيـاد ومخالطة المتخلقين بهـذه الأخلاق وربما يحصل بـالتعلم والوجه الثـاني اكتسـاب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضـيها الخلق المطلـــوب فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجـــود فطريقه أن يتكلف تعـــاطي فعل الجواد وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويـواظب عليه تكلفا مجاهـدا نفسه فيه حـتى يصـــير ذلك طبعا له ويتيسر عليه فيصـــير به جـــوادا وكـــذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديـــدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصـــــير ذلك خلقا له وطبعا فيتيسر عليه وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا فالسـخي هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة و المتواضع هو الـذي يسـتلذ التواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعـود النفس جميع العـادات الحسـنة وما لم تـترك جميع الأفعـال السـيئة وما لم تـواظب عليه مواظبة من يشـتاق إلى الأفعـال الجميلة ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها كما قال صلى الله عليه وسلم وجعلت قرة عيني في الصـلاة حـديث وجعلت قـرة عيـني في الصـلاة أخرجه النسـائي من حـديث أنس وقد تقدم ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصـان ولا ينال كمال السعادة به نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خـير ولكن بالإضـافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى وإنها لكبـيرة إلا على الخاشـعين وقـال صلى الله عليه وسلم اعبد الله في الرضا فإن لم تسـتطع ففي الصـبر على ما تكـره خـير كثير حديث اعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثــير أخرجه الطـــبراني ثم لا يكن في نيل الســـعادة الموعـــودة على حسن الخلق اســـتلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمـان دون زمـان بل ينبغي أن يكـون ذلك على الـدوام وفي جملة العمر وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل ولذلك لما سئل صـلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال طول العمر في طاعة الله تعالى حديث سئل عن السعادة فقـال طول العمر في عبـادة الله رواه القضـاعي في مسـند الشـهاب وأبو منصـور الـديلمي في مسـند الفـردوس من حـديث ابن عمر بإسـناد ضـعيف وللترمـذي من حـديث أبي بكـرة وصححه أي الناس خـير قـال من طـال عمـره وحسن عمله ولـذلك كـره الأنبيـاء والأوليـاء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجـــزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقـــوى وأرسخ وإنما مقصـــود العبـــادات تأثيرها في القلب وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبـادات وغاية هـذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعـالى فلا يكـون شـيء أحب إليه من لقـاء الله تعـالى عز وجل فلا يســـتعمل جميع ماله إلا على الوجه الـــذي يوصــــله إليه وغضـــبه وشـــهوته من المسخرات له فلا يستعملهما إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعـالى وذلك بـأن يكـون

موزونا بميزان الشرع والعقل ثم يكـون بعد ذلك فرحا به مسـتلذا له ولا ينبغي أن يسـتبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين ومصير العبادات لذيـذة فـإن العـادة تقتضي في النفس عجـائب أغـرب من ذلك فإنا قد نـرى الملـوك والمنعمين في أحـزان دائمة ونـرى المقامر قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقمـاره وما هو فيه ما يسـتثقل معه فـرح النـاس بغير قمار مع أن القمار ربما سلبه ماله وخـرب بيته وتركه مفلسا ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به وذلك لطـول إلفه له وصـرف نفسه إليه مـدة وكـذلك اللاعب بالحمـام قد يقف طـول النهـــار في حر الشـــمس قائما على رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحه بـــالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها في جو السـماء بل نـرى الفـاجر العيـار يفتخر بما يلقـاه من الضـرب والقطع والصبر على السياط وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوته بالصبر على ذلك حتى يرى ذلك فخـرا لنفسه ويقطع الواحد منهم إربا إربا على أن يقر بما تعاطـاه أو تعاطـاه غـيره فيصر على الإنكـار ولا يبـالي بالعقوبـات فرحا بما يعتقـده كمـالا وشجاعة ورجولية فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب افتخاره بل لا حالة أخس وأقبح من حـــال المخنث في تشـــبهه بالإنـــاث في نتف الشـــعر ووشم الوجه ومخالطة النسـاء فـترى المخنث في فـرح بحاله وافتخـار بكماله في تخنثه يتبـاهى به مع المخنثين حتى يجري بين الحجامين والكناسـين التفـاخر والمباهـاة كما يجـري بين الملـوك والعلمـــاء فكل ذلك نتيجة العـــادة والمواظبة على نمط واحد على الـــدوام مـــدة مديـــدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف فـإذا كـانت النفس بالعـادة تسـتلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مـدة والـتزمت المواظبة عليه بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خـارج عن الطبع يضـاهي الميل إلى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رباني وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه وإنما غـذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المـرض بالمعـدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببان لحياتها فكل قلب مال إلى حب شيء سـوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله إلا إذا كان أحب ذلك الشـيء لكونه معينا له على حب الله تعالى وعلى دينه فعند ذلك لا يـدل ذلك على المـرض فـإذن قد عـرفت بهـذا قطعا أن هـذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسـابها بالرياضة وهي تكلف الأفعـال الصـادرة عنها ابتـداء لتصير طبعا انتهاء وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعـني النفس والبـدن فـإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة وكل فعل يجـري على الجـوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب والأمر فيه دور ويعـرف ذلك بمثال وهو أن من أراد أن يصـير الحـذق في الكتابة له صـفة نفسـية حـتى يصـير كاتبا بالطبع فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكـاتب الحـاذق ويـواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكـاتب تكلفا ثم لا يزال يـواظب عليه حـتى يصـير صـفة راسـخة في نفسه فيصـدر منه في الآخر الخط الحسن طبعا كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفا فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حســـــــنا ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صـفة الفقه فيصير فقيه النفس وكذلك من أراد أن يصـير سـخيا عفيف النفس حليما متواضـعا فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفا حتى يصـير ذلك طبعا له فلا علاج له إلا ذلك وكما أن طـالب فقه النفس لا ييـأس من نيل هـذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكـرار ليلة فكـذلك طـالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم وهو معـنى قولنا إن الكبـيرة الواحـدة لا تـوجب الشـقاء المؤبد ولكن العطلة في يـوم واحد تـدعو إلى مثلها ثم تتـداعى قليلا قليلا حـتى تـأنس النفس بالكسل وتهجر التحصـيل رأسا فيفوتها فضيلة الفقه وكذلك صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حـتى يفـوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس

بل يظهر فقه النفس شيئا فشيئا على التدريج مثل نمو البدن وارتفاع القامة فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد فلكل واحد منها تأثير فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفي فله ثواب لا محالة فإن الثواب بإزاء الأثر وكذلك المعصية وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوما فيوما إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه فكذا من يستهين صغائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يختطفه الموت بغتة أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيدا بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من مخالبها وهو المعني بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا الآية ولذلك قال رضي الله تعالى عنه إن الإيمان ليبدو في القلب نكتة بيضاء كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض فإذا استكمل العبد الإيمان ابيض القلب كله وإن النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق أسود القلب كله فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاثة حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما فهو في غاية الفضيلة ومن كان رذلا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

## بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له والميل عن الاعتدال مرض فيه فلنتخذ البدن مثالا فنقول مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم وكما أن البدن إن كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضا فشأنه جلب الصحة إليه فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفائها وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة المرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من برودة فبالحرارة فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها فيعالج مرض الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتسخي ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد فكذلك النقائض التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم

يعرف أن العلة من حرارة أو برودة فإن كـانت من حـرارة فيعـرف درجتها أهي ضـعيفة أم قوية فـإذا عـرف ذلك التفت إلى أحـوال البـدن وأحـوال الزمـان وصـناعة المـريض وسـنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطبب نفوس المريدين ويعـالج قلوب المسترشـدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكـاليف في فن مخصـوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم وكما أن الطبيب لو عـالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكـثرهم فكـذلك الشـيخ لو أشـار على المريـدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلـوبهم بل ينبغي أن ينظر في مـرض المريد وفي حاله وسـنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبـني على ذلك رياضـته فـإن كـان المريد مبتـدئا جـاهلا بحـدود الشرع فيعلمه أولا الطهارة والصلاة وظـواهر العبـادات وإن كـان مشـغولا بمـال حـرام أو مقارفا لمعصــية فيــأمره أولا بتركها فــإذا تــزين ظــاهره بالعبــادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحـوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمـراض قلبه فـإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخـذه منه وصـرفه إلى الخـيرات وفـرغ قلبه منه حـتى لا يلتفت إليه وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكدية والســؤال فــإن عــزة النفس والرياسة لا تنكسر إلا بالــذل ولا ذل أعظم من ذل الســؤال فيكلفه المواظبة على ذلك مــدة حــتى ينكسر كـبره وعز نفسه فـإن الكـبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة وإن رأى الغـالب عليه النظافة في البـدن والثيـاب ورأى قلبه مـــائلا إلى ذلك فرحا به ملتفتا إليه اســـتخدمه في تعهد بيت المـــاء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حـتى تتشـوش عليه رعونته في النظافة فإن الـذين ينظفـون ثيـابهم ويزينونها ويطلبـون المرقعـات النظيفة والسـجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنما فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ومن راعى في ثوبه شيئا سوى كونه حلالا وطاهرا مراعـاة يلتفت إليها قلبه فهو مشـغول بنفسه ومن لطـائف الرياضة إذا كـان المريد لا يخسو بـترك الرعونة رأسا أو بـترك صـفة أخـرى ولم يسـمح بضـدها دفعه فينبغي أن ينقله من الخلق المـذموم إلى خلق مـذموم آخر أخف منه كالـذي يغسل الـدم بالبول ثم يغسل البول بالمـاء إذا كـان المـاء لا يزيل الـدم كما يـرغب الصـبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثيـاب ثم ينقل من ذلك بــالترغيب في الرياسة وطلب الجــاه ثم ينقل من الجــاه بــالترغيب في الآخــرة فكـذلك من لم تسـمح نفسه بـترك الجـاه دفعة فلينقل إلى جـاه أخف منه وكـذلك سـائر الصفات وكذلك إذا رأى شره الطعام غالبا عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعــام ثم يكلفه أن يهيءالأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حـتى يقـوى بـذلك نفسه فيتعـود الصـبر وينكسر شـرهه وكـذلك إذا رآه شـابا متشـوقا إلى النكـاح وهو عـاجز عن الطـول فيأمره بالصوم وربما لا تسكن شهوته بـذلك فيـأمره أن يفطر ليلة على المـاء دون الخـبز وليلة على الخبز دون الماء ويمنعه اللحم والأدم رأسا حتى تـذل نفسه وتنكسر شـهوته فلا علاج في مبـدأ الإرادة أنفع من الجـوع وإن رأى الغضب غالبا عليه ألزمه الحلم والسـكوت وسلط عليه من يصبحه ممن فيه سوء خلق ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه كما حكي عن بعضهم أنه كان يعود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شــدة الغضب فكان يسـتأجر من يشـتمه على ملأ من النـاس ويكلف نفسه الصـبر ويكظم غيظه حتى صـار الحلم عـادة له بحيث كـان يضـرب به المثل وبعضـهم كـان يستشـعر في نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يـركب البحر في الشـتاء عند اضطراب الأمـواج وعبـاد الهند يعـالجون الكسل عن العبـادة بالقيـام طـول الليل على نصبة واحدة وبعض الشـيوخ في ابتـداء إرادته كـان يكسل عن القيـام فـألزم نفسه القيـام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع وعالج بعضهم حب المال بــأن بـاع جميع ماله ورمى به في البحر إذ خـاف من تفرقته على النـاس رعونة الجـود والريـاء بالبذل فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب وليس غرضـنا ذكر دواء كل مـرض فـإن ذلك ســيأتي في بقية الكتب وإنما غرضــنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه ســلوك مســلك المضــاد لكل ما تهــواه النفس وتميل إليه وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز

في كملة واحدة فقال تعالى وأما من خـاف مقـام ربه ونهى النفس عن الهـوى فـإن الجنة هي المأوى والأصل المهم في المجاهـدة الوفـاء بـالعزم فـإذا عـزم على تـرك شـهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارا فينبغي أن يصبر ويسـتمر فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت وإذا اتفق منه نقض عزم فينبغي أن يلـزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرنـاه في معاقبة النفس في كتـاب المحاسـبة والمراقبة وإذا لم يخـوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية.

## بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة

اعلم أن كل عضو من أعضاء البـدن خلق لفعل خـاص به وإنما مرضه أن يتعـذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلا أو يصدر منه مع نـوع من الاضـطراب فمـرض اليد أن يتعذر عليها البطش ومرض العين أن يتعـذر عليها الإبصـار وكـذلك مـرض القلب أن يتعـذر عليه فعله الخـــاص به الـــذي خلق لأجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعـــالى وعبادته والتلــذذ بــذكره وإيثــاره ذلك على كل شـهوة سواهوالاسـتعانة بجميع الشـهوات والأعضاء عليه قـال الله تعـالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبـدون ففي كل عضو فائـدة وفائدة القلب الحكمة والمعرفة وخاصة النفس الـتي للآدمي ما يتمـيز بها عن البهـائم فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والإبصار أو غيرها بل بمعرفة الأشـياء على ما هي عليه وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عز وجل الذي جعلها أشـياء فلو عـرف كل شيء ولم يعـرف الله عز وجل فكأنه لم يعـرف شـيئا وعلامة المعرفة المحبة فمن عـرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعــالى قل إن كــان آبــاؤكم وأبنــاؤكم وإخــوانكم وأزواجكم إلى قوله أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حـتى يـأتي الله بـأمره فمن عنـده شـيء أحب إليه من الله فقلبه مـريض كما أن كل معـدة صـار الطين أحب إليها من الخـبز والمـاء أو سـقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة فهذه علامات المرض وبهـذا يعـرف أن القلـوب كلها مريضة إلا ما شاء الله إلا أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فإن دواءه مخالفة الشهوات وهو نزع الروح فـإن وجد من نفسه قـوة الصـبر عليه لم يجد طبيبا حاذقا يعالجه فإن الأطبـاء هم العلمـاء وقد اسـتولى عليهم المـرض فـالطبيب المـريض قلما يلتفت إلى علاجه فلهـذا صـار الـداء عضـالا والمـرض مزمنا وانـدرس هـذا العلم وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها وأقبل الخلق على حب الـدنيا وعلى أعمـال ظاهرها عبـادات وباطنها عـادات ومـراءات فهـذه علامـات أصـول الأمـراض وأما علامـات عودها إلى الصـحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها فإن كان يعـالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل وإنما علاجه ببذل المـال وإنفاقه ولكنه قد يبـذل المـال إلى حد يصـير به مبذرا فيكون التبذير أيضا داء فكان كمن يعالج الـبرودة بـالحرارة حـتى تغلب الحـرارة فهو أيضا داء بل المطلـوب الاعتـدال بين الحـرارة والـبرودة وكـذلك المطلـوب الاعتـدال بين التبـذير والتقتـير حـتى يكـون على الوسط وفي غاية من البعد عن الطـرفين إن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الـذي يوجبه الخلق المحـذور فـإن كـان أسـهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عنـدك وأيسر عليك من بذله لمسـتحقه فـاعلم أن الغـالب عليك خلق البخل فـزد في المواظبة على البـذل فـإن صـار البـذل على غـير المسـتحق ألذ عنـدك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المــال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمســاكه بل يصـير عنـدك كالمــاء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتـاج أو بذله لحاجة محتـاج ولا يـترجح عنـدك البـذل على الإمسـاك فكل قلب صـار كـذلك فقد أتى الله سـليما عن هـذا المقـام خاصة ويجب أن يكـون سـليما عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غــير ملتفتة إليها ولا متشــوقة إلى أســبابها فعند ذلك ترجع إلى ربها

رجـوع النفس المطمئنة راضـية مرضـية داخلة في زمـرة عبـاد الله المقـربين من النبـيين والصــديقين والشــهداء والصــالحين وحسن أولئك رفيقا ولما كــان الوسط الحقيقي بين الطــرفين في غاية الغمــوض بل هو أدق من الشــعر وأحد من الســيف فلا جــرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المسـتقيم أعـني الوسط حـتى لا يميل إلى أحد الجـانبين فيكون قلبه معلقا بالجانب الذي مال إليه ولـذلك لا ينفك عن عـذاب ما واجتيـاز على النـار وإن كـان مثل الـبرق قـال الله تعـالى وإن منكم إلا واردها كـان على ربك حتما مقضـيا ثم ننجي الذين اتقوا أي الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكـثر من بعـدهم عنه ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشـرة مـرة في قوله اهدنا الصـراط المسـتقيم إذ وجب قـراءة الفاتحة في كل ركعة فقد روى أن بعضـهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال قد قلت يا رسول الله شيبتني هـود فلم قلت ذلك فقال عليه السلام لقوله تعالى فاسـتقم كما أمـرت فالاسـتقامة على سـواء السبيل في غاية الغموض ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القـرب من الاسـتقامة إن لم يقدر على حقيقتها فكل من أراد النجـاة فلا نجـاة له إلا بالعمل الصـالح ولا تصـدر الأعمـال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليتفقد كل عبد صـفاته وأخلاقه وليعـددها وليشـتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين.

## بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه فمن كـانت بصـيرته نافـذة لم تخف عليه عيوبه فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه فمن أراد أن يعرف عيـوب نفسه فله أربعة طرق الأول أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع إشارته في مجاهدته وهذا شـأن المريد مع شـيخه والتلميذ مع أسـتاذه فيعرفه أسـتاذه وشـيخه عيـوب نفسه ويعرفه طريق علاجه وهـذا قد عز في الزمـان وجـوده الثـاني أن يطلب صـديقا صـدوقا بصـيرا متـدينا فينصـبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله فما كــره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظــاهرة ينبهه عليه فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين كـان عمر رضي الله عنه يقـول رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له ما الــذي بلغك عني مما تكرهه فاستعفى فألح عليه فقـال بلغـني أنك جمعت بين إدامين على مائـدة وأن لك حلـتين حلة بالنهـار وحلة بالليل قـال وهل بلغك غـير هـذا قـال لا فقـال أما هـذان فقد كفيتهما وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صـاحب سر رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم في المنافقين فهل ترى علي شيئا من آثار النفاق فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكــذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه فكل من كـان أوفر عقلا وأعلى منصـبا كـان أقل إعجابا وأعظم اتهاما لنفسه إلا أن هـذا أيضا قد عز فقل في الأصـدقاء من يـترك المداهنة فيخـبر بـالعيب أو يـترك الحسد فلا يزيد على قـدر الـواجب فلا تخلو في أصـدقائك عن حسـود أو صاحب غـرض يـرى ما ليس بعيب عيبا أو عن مـداهن يخفى عنك بعض عيوبك ولهـذا كـان داود الطائي قد اعتزل الناس فقيل له لم لا تخالط الناس فقال وماذا أصنع بأقوام يخفـون عني عيوبي فكانت شـهوة ذوي الـدين أن يتنبهـوا لعيـوبهم بتنبيه غـيرهم وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا ويكاد هذا أن يكون مفصـحا عن ضعف الإيمان فإن الأخلاق السيئة حيـات وعقـارب لداغة فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منة وفرحنا به واشـتغلنا بإزالة العقـرب وإبعادها وقتلها وإنما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يوما فما دونه ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تـدوم بعد المـوت أبـدا وآلافا من السـنين ثم إنا لا نفـرح بمن ينبهنا عليها ولا نشـتغل بإزالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له وأنت أيضا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الــذنوب وأصل كل ذلك ضــعف الإيمــان فنســأل الله عز وجل أن يلهمنا رشــدنا ويبصــرنا بعيوبنا

ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله الطريق الثالث أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدي المساويا ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لا بد وأن تنتشر على ألسنتهم الطريق الرابع أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموما فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديبا فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب قيل لعيسى عليه السلام من أدبك قال ما أدبني أحد رأيت جهل الجاهل شينا فاجتنبته وهذا كله حيل من فقد شيخا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس مشفقا ناصحا في الدين فارغا من تهذيب نفسه مشتغلا بتهذيب عباد الله تعالى ناصحا لهم فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده.

## بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات

اعلم أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشف لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقي والتقليد لمن يستحق التقليد فإن للإيمان درجة كما أن للعلم درجة والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا وإذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى والذي يقتضي الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر قال الله تعالى ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى وقال تعالى أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى قيل نزع منها محبة الشهوات وقال صلى الله عليه وسلم المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه حديث المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه الحديث أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف فبين أن النفس عدو منازع يجب عليه مجاهدتها ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة وقال عيسى عليه السلام طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لقوم قدموا من الجهاد مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر قال جهاد النفس حديث مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر أخرجه البيهقي في الزهد وقد تقدم في شرح عجائب القلب وقال صلى الله عليه وسلم المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل حديث المجاهد من جاهد نفسه أخرجه الترمذي في أثناء حديث وصححه وابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد وقال صلى الله عليه وسلم كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله تعالى إذن تخاصمك يوم القيامة فيلعن بعضك بعضا إلا أن يغفر الله تعالى ويستر حديث كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله الحديث لم أجده في هذا السيرة وقال سفيان الثوري ما عالجت شيئا أشد على من نفسي مرة لي ومرة علي وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه يا نفس لا في الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ولا في طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كأني بك بين الجنة والنار تحبسين يا نفس ألا تستحين

وقال الحسن ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك وقـال يحـيى بن معـاذ الرازي جاهد نفسك بأسياف الرياضة والرياضة على أربع أوجه القوت من الطعام والغمض من المنـام والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنـام فيتولد من قلة الطعـام مـوت الشهوات ومن قلة المنام صفو الإرادات ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ومن احتمـال الأذى البلوغ إلى الغايات وليس على العبد شـيء أشد من الحلم عند الجفـاء والصـبر على الأذى وإذا تحـركت من النفس إرادة الشـهوات والآثـام وهـاجت منها حلاوة فضـول الكلام جردت سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصــفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها فتصـير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجـول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفارة في الميدان وكالملك المتـنزه في البستان وقـال أيضا أعـداء الإنسـان ثلاثة دنيـاه وشـيطانه ونفسه فـاحترس من الـدنيا بالزهد فيها ومن الشيطان بمخالفته ومن النفس بـترك الشـهوات قـال بعض الحكمـاء من استولت عليه النفس صار أسيرا في حب شهواتها محصورا في سجن هواها مقهورا مغلولا زمامه في يـدها تجـره حيث شـاءت فتمنع قلبه من الفوائد وقـال جعفر بن حميد أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم وقال أبو يحيى الـوراق من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر النـدامات وقـال وهيب بن الـورد ما زاد على الخبز فهو شهوة وقال أيضا من أحب شهوات الـدنيا فليتهيأ للـذل ويـروى أن امـرأة العزيز قـالت ليوسف عليه السـلام بعد أن ملك خـزائن الأرض وقعـدت له على رابية الطريق في يـوم موكبه وكـان يـركب في زهـاء اثـنى عشر ألفا من عظمـاء مملكته سـبحان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له إن الحرص والشهوة صيرا الملـوك عبيدا وذلك جزاء المفسدين وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكا فقـال يوسف كما أخـبر الله تعالى عنه إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين وقـال الجنيد أرقت ليلة فقمت إلى وردي فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها فأردت أن أنام فلم أقـدر فجلست فلم أطق الجلـوس فخـرجت فـإذا رجل ملتف في عبـاءة مطـروح على الطريق فلما أحس بي قال يا أبا القاسم إلى الساعة فقلت يا سيدي من غير موعد قال بلى سـألت الله عز وجل أن يحرك لي قلبك فقلت قد فعل فما حاجتك قال فمتى يصير داء النفس دواءها فقلت إذا خالفت النفس هواها فأقبل على نفسه فقال اسمعي فقد أجبتك بهـذا سـبع مـرات فـأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيدها قد سـمعتيه ثم انصـرف وما عرفته وقـال يزيد الرقاشي إليكم عني الماء البارد في الدنيا لعلي لا أحرمه في الآخرة وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى متى أتكلم قال إذا اشتهيت الصمت قـال مـتى أصـمت قـال إذا اشـتهيت الكلام وقال علي رضي الله عنه من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فإذا رأى الشيء يشـتهيه قـال لنفسه اصـبري فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك علي فإذن قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إلى سـعادة الآخـرة إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات فالإيمان بهذا واجب وأما علم تفصـيل ما يـترك من الشـهوات وما لا يـترك فلا يـدرك إلا بما قـدمناه وحاصل الرياضة وسـرها أن لا تتمتع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضـرورة فيكـون مقتصـرا من الأكل والنكـاح واللباس والمسكن وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة فإنه لو تمتع بشيء منه أنس به وألفه فإذا مات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه ولا يتمنى الرجوع إلى الـدنيا إلا من لا حظ له في الآخـرة بحـال ولا خلاص منه إلا بـأن يكـون القلب مشـغولا بمعرفة الله وحبه والتفكر فيه والانقطاع إليه ولا قوة على ذلك إلا بالله ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الـذكر والفكر فقط فمن لم يقـدر على حقيقة ذلك فليقـرب منه والنـاس فيه أربعة رجل مســتغرق قلبه بــذكر الله فلا يلتفت إلى الــدنيا إلا في ضــرورات المعيشة فهو من الصديقين ولا ينتهي إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديـدة الثـاني رجل اسـتغرقت الـدنيا قلبه ولم يبق لله تعـالى ذكر في قلبه إلا من حيث حـديث النفس حيث يـذكره باللسـان لا بـالقلب فهـذا من الهـالكين والثـالث رجل اشـتغل بالـدنيا والـدين ولكن الغـالب على قلبه هو الـدين فهـذا لا بد له من ورود النـار إلا أنه ينجو منها

ســريعا بقــدر غلبة ذكر الله تعــالى على قلبه والرابع رجل اشــتغل بهما جميعا لكن الــدنيا اغلب على قلبه فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لا محالة لقـوة ذكر الله تعـالى في قلبه وتمكنه من صـميم فـؤاده وإن كـان ذكر الـدنيا أغلب على قلبه اللهم إنا نعـوذ بك من خزيك فإنك أنت المعاذ وربما يقول القائل إن التنعم بالمبـاح مبـاح فكيف يكـون التنعم سـبب البعد من الله عز وجل وهـذا خيـال ضـعيف بل حب الـدنيا رأس كل خطيئة وسـبب إحباط كل حسنة والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضا من الدنيا وهو سـبب البعد وسـيأتي ذلك في كتاب ذم الدنيا وقد قال إبراهيم الخواص كنت مـرة في جبل اللكـام فـرأيت رمانا فاشـتهيته فأخـذت منه واحـدة فشـققتها فوجـدتها حامضة فمضـيت وتركتها فـرأيت رجلا مطروحا وقد اجتمعت عليه الزنـابير فقلت السـلام عليك فقـال وعليك السـلام يا إبـراهيم فقلت كيف عرفتني فقال من عرف الله عز وجل لم يخف عليه شيء فقلت أرى لك حـالا مع الله عز وجل فلو سألته أن يحميك من هذه الزنابير فقال وأرى لك حـالا مع الله تعـالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة ولدغ الزنـابير يجد ألمه في الـدنيا فتركته ومضـيت وقـال السـري أنا منذ أربعين سـنة تطـالبني نفسي أن أغمس خـبزه في دبس فما أطعتها فـإذن لا يمكن إصـلاح القلب لسـلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات فمن أراد حفظ لسـانه عن الغيبة والفضـول فحقه أن يلزمه السـكوت إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين حـتى تمـوت منه شـهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبـادة ومهما اعتـادت العين رمي البصر إلى كل شـيء جميل لم تتحفظ عن النظر إلى ما لا يحل وكذلك سائر الشهوات لأن الذي يشـتهي به الحلال هو بعينه الذي يشتهي الحرام فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحـرام فـإن لم يعودها الاقتصـاد على قـدر الضـرورة من الشـهوات غلبته فهـذه إحـدى آفـات المباحـات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه وهو أن النفس تفرح بـالتنعم في الـدنيا وتـركن إليها وتطمئن إليها أشرا وبطرا حتى تصير ثملة كالسكران الذي لا يفيق من سكره وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسري في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة وهذا هو موت القلب قال الله تعالى ورضوا بالحياة الـدنيا واطمـأنوا بها وقـال تعالى وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع وقال تعالى اعلموا أنما الحيـاة الـدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد الآية وكل ذلك ذم لها فنسـأل الله السـلامة فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاتاة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر وجربوها في حالة الحـزن فوجـدوها لينة رقيقة صـافية قابلة لأثر الـذكر فعلمـوا أن النجـاة في الحـزن الـدائم والتباعد من أسـباب الفـرح والبطر ففطموها عن ملاذها وعودوها الصبر عن شهواتها حلالها وحرامها وعلموا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة فقد عـذب فخلصـوا أنفسـهم من عـذابها وتوصـلوا إلى الحرية والملك الـدائم في الـدنيا والآخـرة بـالخلاص من أسر الشـهوات ورقها والأنس بـذكر الله عز وجل والاشـتغال بطاعته وفعلــوا بها ما يفعل بالبــازي إذا قصد تأديبه ونقله من التــوثب والاســتيحاش إلى الانقياد والتأديب فإنه يحبس أولا في بيت مظلم وتخاط عينـاه حـتى يحصل به الفطـام عن الطيران في جو الهواء وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال ثم يرفق بـاللحم حـتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفا إذا دعاه أجابه ومهما سمع صوته رجع إليه فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عادتها بـالخلوة والعزلة أولا ليحفظ السـمع والبصر عن المألوفات ثم عـودت الثنـاء والـذكر والـدعاء ثانيا في الخلـوة حـتى يغلب عليها الإنس بـذكر الله عز وجل عوضا عن الإنس بالـدنيا وسـائر الشـهوات وذلك يثقل على المريد في البداية ثم يتنعم به في النهاية كالصبي يفطم عن الثـدي وهو شـديد عليه إذا كـان لا يصـبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام ويشـتد نفـوره عن الطعـام الـذي يقـدم إليه بــدلا عن اللبن ولكنه إذا منع اللبن رأسا يوما فيوما وعظم تعبه في الصـبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفا ثم يصير له طبعا فلورد بعد ذلك إلى الثــدي لم يرجع إليه فيهجر الثـدي ويعـاف اللبن ويـألف الطعـام وكـذلك الدابة في الابتـداء تنفر عن السـرج واللجـام

والركوب فتحمل على ذلك قهـرا وتمنع عن السـرج الـذي الفته بالسلاسل والقيـود أولا ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها فتقف فيه من غير قيد فكـذلك تـؤدب النفس كما تـؤدب الطير والدواب وتأديبها بـأن تمنع من النظر والأنس والفـرح بنعيم الـدنيا بل بكل ما يزايلها بـالموت إذ قيل له أحبب ما أحببت فإنك مفارقه فـإذا علم أنه من أحب شـيئا يلزمه فراقة ويشقى لا محالة لفراقه شغل قلبه بحب ما لا يفارقه وهو ذكر الله تعالى فإن ذلك يصـحبه في القـبر ولا يفارقه وكل ذلك يتم بالصـبر أولا أياما قلائل فـإن العمر قليل بالإضـافة إلى مـدة حيـاة الآخـرة وما من عاقل إلا وهو راض باحتمـال المشـقة في سـفر وتعلم صـناعة وغيرها شهرا ليتنعم به سنة أو دهرا وكل العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا فلا بد من الصبر والمجاهدة فعند الصباح يحمد القوم السري وتـذهب عنهم عمايــات الكــرى كما قاله علي رضي الله عنه وطريق المجاهــدة والرياضة لكل إنســان تختلف بحسب اختلاف أحواله والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحة من أسباب الـدنيا فالذي يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ أو بـالعز في القضـاء والولاية أو بكـثرة الأتباع في التدريس والإفـادة فينبغي أن يـترك أولا ما به فرحه فإنه إن منع عن شـيء من ذلك وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به فهو ممن فـرح بالحيـاة الدنيا واطمأن بها وذلك مهلك في حقه ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعـتزل النـاس ولينفـرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بـذكر الله تعـالى والفكر فيه وليترصد لما يبـدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته مهما ظهر فإن لكل وسوسة سببا ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة وليلازم ذلك بقية العمر فليس للجهاد آخر إلا بالموت.

## بيان علامات حسن الخلق

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى تـرك فـواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق فإن حسن الخلق هو الإيمـان وسـوء الخلق هو النفـاق وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمـنين والمنـافقين في كتابه وهي بجملتها ثمـرة حسن الخلق وسـوء الخلق فلنــورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق قــال الله تعــالى قد أفلح المؤمنــون الــذين هم في صــلاتهم خاشــعون والــذين هم عن اللغو معرضــون إلى قوله أولئك هم الوارثون وقال عز وجل التائبون العابـدون الحامـدون إلى قوله وبشر المؤمـنين وقـال عز وجل إنما المؤمنـون الـذين إذا ذكر الله وجلت قلـوبهم إلى قوله أولئك هم المؤمنـون حقا وقال تعالى وعباد الرحمن الـذين يمشـون على الأرض هونا وإذا خـاطبهم الجـاهلون قـالوا سلاما إلى آخر السورة من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجـود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضـها دون بعض يــدل على البعض دون البعض فليشــتغل بتحصــيل ما فقــده وحفظ ما وجــده وقد وصف رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم المـؤمن بصـفات كثـيرة وأشـار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقــال المــؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه حــديث المــؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه أخرجه الشيخان من حـديث أنس لا يـؤمن أحـدكم حـتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وقال عليه السلام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكـرم ضـيفه حـديث من كـان يـؤمن بالله والله الآخر فليكرم ضيفه متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حـديث أبي هريرة وقال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليـوم الآخر فليكـرم جـاره حـديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره متفق عليه من حـديثهما وهو بعض الحـديث الذي قبله وقال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خـيرا أو ليصـمت حـديث من كـان يـؤمن بالله واليـوم الآخر فليقل خـيرا أو ليصـمت متفق عليه أيضا من حـديثهما وهو بعض الذي قبله وذكر أن صفات المؤمـنين هي حسن الخلق فقـال صـلى الله عليه وسـلم أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا حديث أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا تقـدم غـير مـرة وقال صلى الله عليه وسلم إذا رأيتم المـؤمن صـموتا وقـورا فـادنوا منه فإنه يلقن الحكمة حديث إذا رأيتم المؤمن صـموتا وقـورا فـادنوا منه فإنه يلقن الحكمة أخرجه ابن ماجه من حــديث أبي خلاد بلفظ إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهـدا في الــدنيا وقلة منطق وقــال من

سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن حديث من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مــؤمن أخرجه أحمد والطـبراني والحـاكم وصـححه على شـرطهما من حـديث أبي موسى ورواه الطبراني والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة وقال لا يحل لمؤمن أن يشـير إلى أخيه بنظـرة تؤذيه حـديث لا يحل لمسـلم أن يشـير إلى أخيه بنظـرة يؤذيه أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلة مرسلا وقد تقدم وقال صلى الله عليه وسلم لا يحل لمسلم أن يروع مسلما حديث لا يحل لمسـلم أن يـروع مسـلما أخرجه الطبراني والطيالسي من حديث النعمان بن بشير والبزار من حديث عمر وإسناده ضـعيف وقال صلى الله عليه وسلم إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عز وجل فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه حديث إنما يتجـالس المتجالسـان بأمانة الله الحـديث تقـدم في آداب الصحبة وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال هو أن يكون كثـير الحيـاء قليل الأذى كثير الصلاح صـدوق اللسـان قليل الكلام كثـير العمل قليل الزلل قليل الفضـول بـرا وصولا وقورا صبورا شـكورا رضـيا حليما رفيقا عفيفا شـفيقا لا لعانا ولا سـبابا ولا نماما ولا مغتابا ولا عجـولا ولا حقـودا ولا بخيلا ولا حسـودا بشاشا هشاشا يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويغضب في الله فهذا هو حسن الخلق وسـئل رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم عن علامة المـؤمن والمنـافق فقـال إن المـؤمن همته في الصـلاة والصـيام والعبادة والمنـافق همته في الطعـام والشـراب كالبهيمة حـديث سـئل عن علامة المـؤمن والمنافق فقال إن المؤمن همه في الصـلاة والصـيام الحـديث لم أجد له أصلا وقـال حـاتم الأصم المؤمن مشغول بالفكر والعـبر والمنـافق مشـغول بـالحرص والأمل والمـؤمن آيس من كل أحد إلا من الله والمنـــافق راج كل أحد إلا الله والمـــؤمن آمن من كل أحد إلا من الله والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله والمؤمن يقدم ماله دون دينه والمنـافق يقـدم دينه دون ماله والمـؤمن يحسن ويبكي والمنـافق يسـيء ويضـحك والمـؤمن يحب الخلـوة والوحـدة والمنـافق يحب الخلطة والملأ والمـؤمن يـزرع ويخشى الفسـاد والمنـافق يقلع ويرجو الحصاد والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصـبر على الأذى واحتمـال الجفـاء ومن شـكا من سـوء خلق غيره دل ذلك على سـوء خلقه فـإن حسن الخلق احتمـال الأذى فقد روي أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابي فجذبه جـذبا شـديدا وكـان عليه بـرد نجـراني غليظ الحاشـية قـال أنس رضي الله عنه حـتى نظـرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه فقـال يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ثم أمر بإعطائه حديث كان يمشي فأدركه أعرابي فجذبه جذبا شديدا وكان عليه بـرد نجـراني غليظ الحاشية الحديث متفق عليه من حديث أنس ولما أكثرت قريش إيذاءه وضـربه قـال اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون حديث اللهم اغفر لقومي فـإنهم لا يعلمـون أخرجه ابن حبان والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سهل ابن سعد وفي الصـحيحين من حـديث ابن مسعود أنه حكاه صلى الله عليه وسلم عن نبي من الأنبيـاء ضـربه قومه قيل إن هـذا يـوم أحد فلذلك أنزل الله تعالى وإنك لعلى خلق عظيم ويحكى أن إبـراهيم بن أدهم خـرج يوما إلى بعض الـبراري فاسـتقبله رجل جنـدي فقـال أنت عبد قـال نعم فقـال له أين العمـران فأشار إلى المقبرة فقال الجندي إنما أردت العمران فقال هو المقبرة فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخـبر فـأخبرهم الجنـدي ما قال له فقالوا هذا إبـراهيم بن أدهم فـنزل الجنـدي عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه فقيل بعد ذلك له لم قلت له أنا عبد فقـال إنه لم يسـألني عبد من أنت بل قـال أنت عبد فقلت نعم لأني عبد الله فلما ضـــرب رأسي ســألت الله له الجنة قيل كيف وقد ظلمك فقال علمت أنني أوجر على ما نالني منه فلم أرد يكون نصـيبي منه الخـير ونصـيبه مني الشر ودعي أبو عثمان الحيري إلى دعوة وكان الداعي قد أراد تجربته فلما بلغ منزله قال له ليس لي وجه فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانيا فقال له يا أستاذ ارجع فرجع أبو عثمــان فقــال له مثل مقالته الأولى فرجع ثم دعــاه الثالثة وقـال ارجع على ما يوجب الـوقت فرجع فلما بلغ البـاب فـان له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمـان ثم جـاءه

الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك فأكب على رجليه وقــال يا أستاذ إنما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك فقال إن الـذي رأيت مـني هو خلق الكلب إن الكلب إذا دعي أجاب وإذا زجر انزجر وروي عنه أيضا أنه اجتاز يوما في سكة فطرحت عليه إجانة رماد فنزل عن دابته فسجد سجدة الشـكر ثم جعل ينفض الرمـاد عن ثيابه ولم يقل شيئا فقيل ألا زبـرتهم فقـال إن من اسـتحق النـار فصـولح على الرمـاد لم يجز له أن يغضب وروي أن علي بن موسى الرضا رحمة الله عليه كـــان لونه يميل إلى الســــواد إذ كانت أمه سوداء وكان بنيسابور حمام على باب داره وكان إذا أراد دخول الحمـام فرغه له الحمامي فـدخل ذات يـوم فـأغلق الحمـامي البـاب ومضى في بعض حوائجه فتقـدم رجل رسـتاقي إلى بـاب الحمــام ففتحه ودخل فــنزع ثيابه ودخل فــرأى علي بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمـام فقـال له قم واحمل إلي المـاء فقـام علي بن موسى وامتثل جميع ما كـان يـأمره به فرجع الحمـامي فـرأى ثيـاب الرسـتاقي وسـمع كلامه مع علي بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما فلما خـرج علي بن موسى سـأل عن الحمـامي فقيل له إنه خاف مما جرى فهرب قال لا ينبغي له أن يهرب إنما الذنب لمن وضع مـاءه عند أمة ســوداء وروي أن أبا عبد الله الخيــاط كـــان يجلس على دكانه وكـــان له حريف مجوسي يسـتعمله في الخياطة فكـان إذا خـاط له شـيئا حمل إليه دراهم زائفة فكـان أبو عبد الله يأخذ منه ولا يخبره بذلك ولا يردها عليه فاتفق يوما أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته فـأتى المجوسي فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهما زئفا فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فرده عليه فلما عاد أبو عبد الله أخـبره بـذلك فقـال بئس ما عملت هذا المجوسي يعاملني بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقيها في البــئر لئلا يغر بها مســلما وقــال يوسف بن أســباط علامة حسن الخلق عشر خصال قلة الخلاف وحسن الإنصاف وتـرك طلب العـثرات وتحسـين ما يبـدو من السـيئات والتمـاس المعـذرة واحتمـال الأذى والرجـوع بالملامة على النفس والتفـرد بمعرفة عيـوب نفسه دون عيوب غيره وطلاقة الوجه للصغير والكبــير ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه وسئل سهل عن حسن الخلق فقال أدنـاه احتمـال الأذى وتـرك المكافـأة والرحمة للظـالم والاستغفار له والشفقة عليه وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم فقال من قيس بن عاصم قيل ما وبلغ من حلمه قــال بينما هو جــالس في داره إذ أتته جارية له بســفود عليه شواء فسـقط من يـدها فوقع على ابن له صـغير فمـات فدهشت الجارية فقـال لها لا روع عليك أنت حــرة لوجه الله تعــالى فقيل إن أويسا القــرني كــان إذا رآه الصــبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم يا إخوتاه إن كان ولا بد فارموني بالصـغار حـتى لا تـدموا سـاقي فتمنعوني عن الصلاة وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قــرب من الحي وقف وقال إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض سـفهاء الحي فيؤذوك وروي أن عليا كرم الله وجهه دعا غلاما فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقـام إليه فرآه مضطجعا فقال أما تسمع يا غلام قال بلى قال فما حملك على ترك إجابتي قــال أمنت عقوبتك فتكاسـلت فقـال امض فـأنت حر لوجه الله تعـالى وقـالت امـرأة لمالك بن دينار رحمه الله يا مرائي فقال يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة وكـان ليحـيى بن زياد الحارثي غلام سـوء فقيل له لم تمسـكه فقـال لأتعلم الحلم عليه فهـذه نفـوس قد ذللت بالرياضة فاعتــدلت أخلاقها ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فــأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق فإن من يكره فعل الله تعــالى ولا يرضى به فهو غاية ســوء خلقه فهــؤلاء ظهــرت العلامــات على ظــواهرهم كما ذكرنــاه فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق بل ينبغي أن يشـتغل بالرياضة والمجاهـدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون.

## بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أن الطريق في رياضة الصـبيان من أهم الأمـور وأوكـدها والصـبيان أمانة عند والديه وقلبه الطـاهر جـوهرة نفيسة سـاذجة خالية عن كل نقش وصـورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه فإن عود الخـير وعلمه نشأ عليه وسـعد في الـدنيا والآخـرة وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب وإن عـود الشر وأهمل إهمـال البهـائم شـقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له وقد قال الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخـرة أولى وصـيانته بـأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرنـاء السـوء ولا يعـوده التنعم ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية فيضـيع عمـره في طلبها إذا كـبر فيهلك هلاك الأبد بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضـاعه إلا امـرأة متدينة تأكل الحلال فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فإذا وقع عليه نشو الصــبي انعجنت طينته من الخــبيث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبــائث ومهما رأى فيه مخايل التميــيز فينبغي أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهــور أوائل الحيـاء فإنه إذا كـان يحتشم ويسـتحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حـتى يـرى بعض الأشـياء قبيحا ومخالفا للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تـدل على اعتـدال الأخلاق وصـفاء القلب وهو مبشر بكمـال العقل عند البلـوغ فالصـبي المسـتحي لا ينبغي أن يهمل بل يسـتعان على تأديبه بحيائه أو تميـيزه وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه وأن يقول عليه بسم الله عند أخــذه وأن يأكل مما يليه وأن لا يبــادر إلى الطعــام قبل غــيره وأن لا يحـدق النظر إليه ولا إلى من يأكل وأن لا يسـرع في الأكل وأن يجيد المضغ وأن لا يـوالي بين اللقم ولا يلطخ يده ولا ثوبه وأن يعـود الخـبز القفـار في بعض الأوقـات حـتى لا يصـير بحيث يرى الأدم حتما ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشـبه كل من يكـثر الأكل بالبهـائم وبـأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتـأدب القليل الأكل وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أي طعام كان وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم ويقرر عنده أن ذلك شأن النسـاء والمخنـثين وأن الرجـال يسـتنكفون منه ويكـرر ذلك عليه ومهما رأى على صبي ثوبا من إبريسم أو ملـون فينبغي أن يسـتنكره ويذمه ويحفظ الصـبي عن الصـبيان الـذين عـودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسـمعه ما يرغبه فيه فـإن الصـبي مهما أهمل في ابتداء نشوه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا ذا فضول وضـحك وكيـاد ومجانة وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التـأديب ثم يشـتغل في المكتب فيتعلم القــرآن وأحــاديث الأخبــار وحكايــات الأبــرار وأحــوالهم لينغــرس في نفسه حب الصــالحين ويحفظ من الأشـعار الـتي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الأدبـاء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع فإن ذلك يغـرس في قلـوب الصـبيان بـذر الفساد ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمـود فينبغي أن يكـرم عليه ويجـازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس فـإن خـالف ذلك في بعض الأحـوال مـرة واحـدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسـروا أحد على مثله ولا سيما إذا ستره الصـبي واجتهد في إخفائه فـإن إظهـار ذلك عليه ربما يفيـده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة فعند ذلك إن عاد ثانيا فينبغي أن يعاتب سـرا ويعظم الأمر فيه ويقال له إيـاك أن تعـود بعد ذلك لمثل هـذا وأن يطلع عليك في مثل هـذا فتفتضح بين الناس ولا تكـثر القـول عليه بالعتـاب في كل حين فإنه يهـون عليه سـماع الملامة وركـوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح وينبغي أن يمنع عن النـوم نهـارا فإنه يـورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصـبر عن التنعم بل يعـود الخشـونة في المفـرش والملبس والمطعم وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح فإذا ترك تعـود فعل القـبيح ويعـود في بعض النهـــار المشي والحركة والرياضة حـــتى لا يغلب عليه الكسل ويعــود أن لا يكشف أطرافه ولا يسـرع المشي ولا يـرخي يديه بل يضـمها إلى صـدره ويمنع من أن يفتخر على

أقرانه بشـيء مما يملكه والـداه أو بشـيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته بل يعـود التواضع والإكـــرام لكل من عاشـــره والتلطف في الكلام معهم ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئا بدا له حشمة إن كان من أولاد المحتشـمين بل يعلم أن الرفعة في الإعطـاء لا في الأخذ وأن الأخذ لـؤم وخسة ودنـاءة وإن كـان من أولاد الفقـراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصـــبص في انتظـــار لقمة والطمع فيها وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحـذر من الحيات والعقـارب فـإن آفة حب الـذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السـموم على الصبيان بل على الأكـابر أيضا وينبغي أن يعـود أن لا يبصق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يسـتدبر غـيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل ويعلم كيفية الجلـوس ويمنع كـثرة الكلام ويـبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئـام ويمنع اليمين رأسا صـادقا كـان أو كاذبا حتى لا يعتـاد ذلك في الصـغر ويمنع أن يبتـديء بـالكلام ويعـود أن لا يتكلم إلا جوابا وبقـدر السؤال وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سـنا وأن يقـوم لمن فوقه ويوسع له المكـان ويجلس بين يديه ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسري لا محالة من القرناء السـوء وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصـراخ والشغب ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويـذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجـال وأن كـثرة الصراخ دأب المماليك والنسـوان وينبغي أن يـؤذن له بعد الانصـراف من الكتـاب أن يلعب لعبا جميلا يسـتريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب فـإن منع الصـبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكـاءه وينغص عليه العيش حـتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكـــبر منه سـنا من قـريب وأجنـبي وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يـترك اللعب بين أيـديهم ومهما بلغ سن التميـيز فينبغي أن لا يسـامح في تـرك الطهـارة والصـلاة ويـؤمر بالصوم في بعض أيام رمضـان ويجنب لبس الـديباج والحرير والـذهب ويعلم كل ما يحتـاج إليه من حـدود الشـرع ويخـوف من السـرقة وأكل الحـرام ومن الخيانة والكـذب والفحش وكل ما يغلب على الصبيان فإذا وقع نشوه كذلك في الصـبا فمهما قـارب البلـوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور فيذكر له أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل وأن الـــدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقـــاء لها وإن المـــوت يقطع نعيمها وأنها دار ممر لا دار مقر وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر وأن المـوت منتظر في كل سـاعة وأن الكيس العاقل من تـزود من الـدنيا للآخـرة حـتى تعظم درجته عند الله تعـالى ويتسع نعيمه في الجنان فـإذا كـان النشو صـالحا كـان هـذا الكلام عند البلـوغ واقعا مـؤثرا ناجعا يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر وإن وقع النشو بخلاف ذلك حـــــتى ألف الصـبي اللعب والفحش والوقاحة وشـره الطعـام واللبـاس والـتزين والتفـاخر نبا قبله عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس فأوائل الأمور هي الـتي ينبغي أن تـراعى فـإن الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما أبـواه يميلان به إلى أحد الجـانبين قـال صـلى الله عليه وسـلم كل مولـود يولد على الفطـرة وإنما أبـواه يهودانه أو ينصـرانه أو يمجسانه حديث كل مولـود يولد على الفطـرة الحـديث متفق عليه من حـديث أبي هريـرة قال سـهل بن عبد الله التسـتري كنت وأنا ابن ثلاث سـنين أقـوم بالليل فـأنظر إلى صـلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوما ألا تـذكر الله الـذي خلقك فقلت كيف أذكـره قـال قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غـير أن تحـرك به لسـانك الله معي الله نـاظر إلي الله شـاهدي فقلت ذلك ليـالي ثم أعلمته فقـال قل في كل ليلة سـبعة مـرات فقلت ذلك ثم أعلمته فقال قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مـرة فقلته فوقع في قلـبي حلاوته فلما كان بعد سنة قال لي خالي احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القـبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لـذلك حلاوة في سـري ثم قـال لي خـالي يوما يا سهل من كـان الله معه ونـاظرا إليه وشـاهده أيعصيه إيـاك والمعصية فكنت أخلو بنفسي فبعثـــوا بي إلى المكتب فقلت إني لأخشى أن يتفـــرق علي همي ولكن شـــارطوا

المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع فمضيت إلى الكتاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلي أن يبعثوني إلى أهل البصرة لأسأل عنها فأتيت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عني شيئا فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبد الله العباداني فسألته عنها فأجابني فأقمت عنده مدة انتفع بكلامه وأتأدب بآدابه ثم رجعت إلى تستر فجعلت قوتي اقتصادا على أن يشتري لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة بحتا من غير ملح ولا أدم فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال ثم أفطر ليلة ثم خمسا ثم سبعا ثم خمسا وعشرين ليلة فكنت على ذلك عشرين سنة ثم خرجت أسيح في الأرض سنين ثم رجعت إلى تستر وكنت أقوم الليل كله ما شاء الله تعالى قال أحمد فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى.

## بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة

واعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدا حرث الآخرة مشتاقا إليها سالكا سبلها مستهينا بنعيم الدنيا ولذاتها فإن من كانت عنده خرزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة في الخرزة وقويت إرادته في بيعها بالجوهرة ومن ليس مريدا حرث الآخرة ولا طالبا للقاء الله تعالى فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر ولست أعني بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص فإن ذلك يضاهي قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرزة إلا أنه لا يدري من الجوهرة إلا لفظها وأما حقيقتها فلا ومثل هذا المصدق إذا ألف الخرزة قد لا يتركها ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهرة فإذن المانع من الوصول عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الإرادة والمانع من الإرادة عدم الإيمان وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء بالله تعالى الهادين إلى طريقه والمنبهين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها فالخلق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رقدتهم وليس في علماء الدين من ينبههم فإن تنبه منهم متنبه عجز عن سلوك الطريق لجهله فإن طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سببا لخلق طريق الله تعالى عن السالكين فيه ومهما كان المطلوب محجوبا والدليل مفقودا والهوى غالبا والطالب غافلا امتنع الوصول وتعطلت الطرق لا محالة فإن تنبه متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره وانبعث له إرادة في حرث الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم له شروطا لا بد من تقديمها في بداية الإرادة وله معتصم لا بد من التمسك به وله حصن لا بد من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه وعليه وظائف لا بد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق أما الشروط التي لا بد من تقديمها في الإرادة فهي رفع السد والحجاب الذي بينه وبين الحق فإن حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السد على الطريق قال الله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون والسد بين المريد وبين الحق أربعة المال والجاه والتقليد والمعصية وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإيثار الخمول والهرب من أسباب الذكر وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعنى قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله تصديق إيمان ويحرص في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى وأعظم معبود له الهوى حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليدا فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة فإن غلب عليه التعصب لمعتقده ولم يبق في نفسه متسع لغيره صار ذلك قيدا له وحجابا إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معين أصلا وأما المعصية فهي حجاب ولا يرفعها إلا التوبة والخروج من المظالم

وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على ما مضي ورد المظالم وإرضاء الخصـوم فـإن من لم يصـحح التوبة ولم يهجر المعاصي الظـاهرة وأراد أن يقف على أسـرار الـدين بالمكاشـفة كـان كمن يريد أن يقف على أسـرار القـرآن وتفسـيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب فإن ترجمة عربية القـرآن لا بد من تقـديمها أولا ثم الـترقي منها إلى أسـرار معانيه فكذلك لا بد من تصحيح الشريعة أولا وآخـرا ثم الـترقي إلى أغوارها وأسـرارها فـإذا قـدم هذه الشروط الأربعة وتجرد عن المال والجاه كـان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحـدث وصـار صالحا للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدي به فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل فإن سبيل الـدين غـامض وسـبل الشـيطان كثـيرة ظـاهرة فمن لم يكن له شيخ يهديه قـاده الشـيطان إلى طرقه لا محالة فمن سـلك سـبل البـوادي المهلكة بغير خفير قد خاطر بنفسه وأهلكها ويكون المستقل بنفسه كالشـجرة الـتي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر فمعتصم المريد بعد تقديم الشـروط المـذكورة شـيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شـاطيءالنهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ولا يخالفه في ورده ولا صـدره ولا يبقى في متابعته شـيئا ولا يـذر وليعلم أن نفعه في خطأ شـيخه لو أخطأ أكـثر من نفعه في صـواب نفسه لو أصـاب فـإذا وجد مثل هـذا المعتصم وجب على معتصـمه أن يحميه ويعصـمه بحصن حصـين يـدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور الخلوة والصمت والجوع والسهر وهـذا تحصن من القواطع فـإن مقصـود المريد إصـلاح قلبه ليشـاهد به ربه ويصـلح لقربه أما الجـوع فإنه ينقص دم القلب ويبيضه وفي بياضه نـــوره ويـــذيب شـــحم الفـــؤاد وفي ذوبانه رقته ورقته مفتـــاح المكاشفة كما أن قساوته سبب الحجاب ومهما نقص دم القلب ضـاق مسـلك العـدو فـإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات وقـال عيسى عليه السـلام يا معشر الحـواريين جوعـوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم وقال سهل بن عبد الله التستري ما صـار الأبـدال أبـدالا إلا بأربع خصال بإخماص البطون والسهر والصـمت والاعـتزال عن النـاس ففائـدة الجـوع في تنـوير القلب أمر ظـاهر يشـهد له التجربة وسـيأتي بيـان وجه التـدريج فيه في كتـاب كسر الشـهوتين وأما السـهر فإنه يجلو القلب ويصـفيه وينـوره فيضـاف ذلك إلى الصـفاء الـذي حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدري والمـرآة المجلـوة فيلـوح فيه جمـال الحق ويشاهد فيه رفيع الـدرجات في الآخـرة وحقـارة الـدنيا وآفاتها فتتم بـذلك رغبته عن الـدنيا وإقباله على الآخرة والسـهر أيضا نتيجة الجـوع فـإن السـهر مع الشـبع غـير ممكن والنـوم يقسي القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشـفة لأسـرار الغيب فقد قيل في صفة الأبدال إن أكلهم فاقه ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة وقال إبـراهيم الخـواص رحمه الله أجمع رأي سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء وأما الصمت فإنه تسهله العزلة ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره فينبغي أن لا يتكلم إلا بقـدر الضـرورة فـإن الكلام يشـغل القلب وشـره القلـوب إلى الكلام عظيم فإنه يستروح إليه ويستثقل التجرد للذكر والفكر فيستريح إليه فالصمت يلقح العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى وأما حياة الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضـبط السـمع والبصر فإنهما دهليز القلب والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قـذرة من أنهـار الحـواس ومقصـود الرياضة تفريغ الحـوض من تلك الميـاه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه المـاء النظيف الطـاهر وكيف يصح له أن يـنزح المـاء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قـــدر الضـــرورة وليس يتم ذلك إلا بـــالخلوة في بيت مظلم وإن لم يكن له مكـــان مظلم فليلف رأسه في جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية أما ترى أن نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه وهو على مثل هذه الصفة فقيل له يا أيها المزمل يا أيها المدثر حـديث بـدئ رسـول الله صـلى الله عليه وسلم وهو مدثر فقيل له يا أيها المزمل يا أيها المدثر متفق عليه من حديث جابر جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني الحـديث وفيه فـأتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا علي الماء باردا فدثروني وصبوا علي ماء باردا قال فـنزلت يا أيها المـدثر وفي رواية فقلت زملـوني زملـوني ولهما من حـديث عائشة فقـال زملـوني

زملـوني فزملـوه حـتى ذهب عنه الـروع فهـذه الأربعة جنة وحصن بها تـدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق وإنما سـلوكه بقطع العقبات ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب الـتي سـببها الالتفـات إلى الــدنيا وبعض تلك العقبــات أعظم من بعض والــترتيب في قطعها أن يشــتغل بالأســهل فالأسهل وهي تلك الصفات أعني أسرار العلائق التي قطعها في أول الإرادة وآثارها أعـني المـال والجـاه وحب الـدنيا والالتفـات إلى الخلق والتشـوف إلى المعاصي فلا بد أن يخلى الباطن عن آثارها كما أخلى الظاهر عن أسـبابها الظـاهرة وفيه تطـول المجاهـدة ويختلف ذلك باختلاف الأحوال فرب شـخص قد كفى أكـثر الصـفات فلا تطـول عليه المجاهـدة وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صـفة غالبة على نفس المريد كما سبق ذكره فإذا كفى ذلك أو ضـعف بالمجاهـدة ولم يبق في قلبه علاقة شـغله بعد ذلك بـذكر يلـزم قلبه على الـدوام ويمنعه من تكثـير الأوراد الظـاهرة بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده وردا واحدا وهو لبـاب الأوراد وثمرتها أعـني ملازمة القلب لـذكر الله تعـالى بعد الخلو من ذكر غـيره ولا يشـغله به مـادام قلبه ملتفتا إلى علائقهقـال الشبلي للحصـري إن كـان يخطر بقلبك من الجمعة الـتي تـأتيني فيها إلى الجمعة الأخـرى شيء غير الله تعـالى فحـرام عليك أن تـأتيني وهـذا التجـرد لا يحصل إلا مع صـدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون في صورة العاشق المستهتر الذي ليس له إلا هم واحد فإذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويوكل به من يقوم له بقدر يسـير من القوت الحلال فإن أصل طريق الدين القـوت الحلال وعند ذلك يلقنه ذكـرا من الأذكـار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلا الله الله أو سـبحان الله سـبحان الله أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسـقط حركة اللسـان وتكـون الكلمة كأنها جارية على اللسـان من غـير تحريك ثم لا يـزال يـواظب عليه حـتى يسـقط الأثر عن اللسـان وتبقي صـورة اللفظ في القلب ثم لا يـزال كـذلك حـتى يمحى عن القلب حـروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معنـاه لازمة للقلب حاضـرة معه غالبة عليه قد فـرغ عن كل ما سواه لأن القلب إذا شغل بشيء خلا عن غـيره أي شـيء كـان فـإذا اشـتغل بـذكر الله تعـالى وهو المقصـود خلا لا محالة عن غـيره وعند ذلك يلزمه أن يـراقب وسـاوس القلب والخواطر التي تتعلق بالدنيا وما يتـذكر فيه مما قـدر مضى من أحواله وأحـوال غـيره فإنه مهما اشــتغل بشــيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الــذكر في تلك اللحظة وكــان أيضا نقصانا فليجتهد في دفع ذلك ومهما دفع الوساوس كلها ورد النفس إلى هـذه الكلمة جاءته الوسـاوس من هـذه الكلمة وأنها ما هي وما معـنى قولنا الله ولأي معـنى كـان إلها وكـان معبــودا ويعتريه عند ذلك خــواطر تفتح عليه بــاب الفكر وربما يــرد عليه من وســاوس الشيطان ما هو كفر وبدعة ومهما كان كارها لذلك ومتشمرا لإماطته عن القلب لم يضــره ذلك وهي منقسمة إلى ما يعلم قطعا أن الله تعـالى مـنزه عنه ولكن الشـيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره فشرطه أن يبـالي به ويفـزع إلى ذكر الله تعـالى ويبتهل إليه ليدفعه عنه كما قـال الله تعـالى وإما ينزغنك من الشـيطان نـزغ فاسـتعذ بالله إنه سـميع عليم وقال تعالى إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فـإذا هم مبصـرون وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يعرض ذلك على شـيخه بل كل ما يجد في قلبه من الأحـوال من فـترة أو نشـاط أو التفـات إلى علقة أو صـدق في إرادة فينبغي أن يظهر ذلك لشـيخه وأن يسـتره عن غـيره فلا يطلع عليه أحـدا ثم إن شـيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياســته فلو علم أنه لو تركه وأمــره بــالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته وإن علم إن ذلك مما لا يقــوى عليه مثله رده إلى الاعتقــاد القــاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه وينبغي أن يتأنق الشـيخ ويتلطف به فـإن هـذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها فكم من مريد اشـــتغل بالرياضة فغلب عليه خيـــال فاسد لم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة وذلك هو الهلاك العظيم ومن تجرد للـذكر ودفع العلائق الشـاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثـال هـذه الأفكـار فإنه قد ركب سفينة الخطر فإن سلم كان من ملوك الدين وإن أخطأ كان من الهالكين ولذلك قال

صلى الله عليه وسلم عليكم بدين العجائز حديث عليكم بدين العجـائز قـال ابن طـاهر في كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثا لمحمد بن عبد الرحمن بن السلماني عن ابن عمرو عن النـبي صلى الله عليه وسـلم إذا كـان في آخر الزمـان واختلف الأهـواء فعليكم بـدين أهل البادية والنسـائي وابن السـلماني له عن أبيه عن ابن عمر نسـخة كـان يتهم بوضـعها انتهى وهـذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة ابن السلماني والله أعلم وهو تلقي أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير فـإن الخطر في العدول عن ذلك كثير ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس في المريد فإن لم يكن ذكيا فطنا متمكنا من اعتقاد الظاهر لم يشـغله بالـذكر والفكر بل يـرده إلى الأعمـال الظـاهرة والأوراد المتـواترة أو يشـغله بخدمة المتجـردين للفكر لتشـمله بـركتهم فـإن العـاجز عن الجهـاد في صف القتـال ينبغي أن يسـقي القـوم ويتعهد دوابهم ليحشر يـوم القيامة في زمرتهم وتعمه بركتهم وإن كان لا يبلغ درجتهم ثم المريد المتجرد للـذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثـيرة من العجب والريـاء والفـرح بما ينكشف له من الأحـوال وما يبـدو من أوائل الكرامات ومهما التفت إلى شـيء من ذلك وشـغلت به نفسه كـان ذلك فتـورا في طريقه ووقوفا بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمـره ملازمة العطشـان الـذي لا ترويه البحـار ولو أفيضت عليه ويـدوم على ذلك ورأس ماله الانقطـاع عن الخلق إلى الحق والخلـوة قـال بعض السياحين قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق كيف الطريق إلى التحقيق فقال أن تكون في الدنيا كأنك عابر طريق وقال مرة قلت له دلني على عمل أجد قلـبي فيه مع الله تعالى على الـدوام فقـال لي لا تنظر إلى الخلق فـإن النظر إليهم ظلمة قلت لا بد لي من ذلك قال فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة قلت لا بد لي من ذلك قـال فلا تعـاملهم فـإن معـاملتهم وحشة قلت أنا بين أظهـرهم لا بد لي من معـاملتهم قـال فلا تسـكن إليهم فـإن السـكون إليهم هلكة قلت هـذا لعلة قـال يا هـذا أتنظر إلى الغـافلين وتسـمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعـالى على الـدوام هـذا ما لا يكـون أبدا فإذا منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك إلا بـأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة فـإذا حصل قلبه مع الله تعـالى انكشف له جلال الحضـرة الربوبية وتجلى له الحق وظهر له من لطـائف الله تعـالى ما لا يجـوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلا وإذا انكشف للمريد شـيء من ذلك فـأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظا ونصـحا ويتصـدى للتـذكير فتجد النفس فيه لـذة ليس وراءها لـذة فتدعوه تلك اللـذة إلى أن يتفكر في كيفية إيـراد تلك المعـاني وتحسـين الألفـاظ المعـبرة عنها وتـرتيب ذكرها وتزيينها بالحكايـات وشـواهد القـرآن والأخبـار وتحسـين صـنعة الكلام لتميل إليه القلوب والأسماع فربما يخيل إليه الشيطان أن هذا إحيـاء منك لقلـوب المـوتى الغـافلين عن الله تعـالى وإنما أنت واسـطة بين الله تعـالى وبين الخلق تـدعو عبـاده إليه ومالك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكـون أحسن كلاما منه وأجزل لفظا وأقدر على اسـتجلاب قلـوب العـوام فإنه يتحـرك في باطنه عقرب الحسد لا محالة إن كـان محركه كيد القبـول وإن كـان محركه هو الحق حرصا على دعـوة عبـاد الله تعـالى إلى صـراطه المسـتقيم فيعظم به فرحه ويقـول الحمد لله الـذي عضدني وأيدني بمن وازرني على إصلاح عباده كالذي وجب عليه مثلا أن يحمل ميتا ليدفنه إذ وجـده ضـائعا وتعين عليه ذلك شـرعا فجـاء من أعانه عليه فإنه يفـرح به ولا يحسد من يعينه والغافلون موتى القلوب والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم ففي كثرتهم اسـترواح وتناصر فينبغي أن يعظم الفرح بذلك وهذا عزيز على الوجود جـدا فينبغي أن يكـون المريد على حـــذر منه فإنه أعظم حبائل الشـــيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فإن إيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ولذلك قـال الله تعـالى بل تـؤثرون الحياة الدنيا ثم بين أن الشر قديم في الطبـاع وأن ذلك مـذكور في الكتب السـالفة فقـال إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى فهـذا منهـاج رياضة المريد وتربيته في التدريج إلى لقاء الله تعالى فأما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتي فإن أغلب الصـفات على الإنسـان بطنه وفرجه ولسـانه أعـني به الشـهوات المتعلقة بها ثم الغضب الـذي هو

كالجند لحماية الشــهوات ثم مهما أحب الإنســان شــهوة البطن والفــرج وأنس بهما أحب
الدنيا ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه وإذا طلب المـال والجـاه حـدث فيه الكـبر والعجب
والرياسة وإذا ظهر ذلك لم تســمح نفسه بــترك الــدنيا رأسا وتمسك من الــدين بما فيه
الرياسة وغلب عليه الغرور فلهـذا وجب علينا بعد تقـديم هـذين الكتـابين أن نسـتكمل ربع
المهلكات بثمانية كتب إن شاء الله تعالى كتاب في كسر شهوة البطن والفرج وكتــاب في
آفـات اللســان وكتــاب في كسر الغضب والحقد والحسد وكتــاب في ذم الــدنيا وتفصــيل
خدعها وكتاب في كسر حب المال وذم البخل وكتاب في ذم الرياء وحب الجاه وكتـاب في
ذم الكبر والعجب وكتاب في مواقع الغـرور وبـذكر هـذه المهلكـات وتعليم طـرق المعالجة
فيها يتم غرضنا من ربع المهلكات إن شاء الله تعالى فـإن ما ذكرنـاه في الكتـاب الأول هو
شرح لصفات القلب الذي هو معدن المهلكات والمنجيات وما ذكرناه في الكتاب الثاني هو
إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب أما تفصـيلها فإنه يـأتي في
هـذه الكتب إن شـاء الله تعـالى تم كتـاب رياضة النفس وتهـذيب الأخلاق بحمد الله وعونه
وحسن توفيقه يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصـطفى من أهل الأرض والسـماء وما
توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.